مجلة رفوف–مخبر المخطوطات – جامعة أدرار– الجزائر المجلد 09 / العـدد: 02 (جويلية2021) ص 190– 204
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

ابن الونان التواتي وصور الإبداع في شمقمقيتة

Ibn al-Wannan al-Twati and Figures of Creativity in His *Shamaqmaqiya*

الدكتور: امحمد بابا
القطب الجامعي (أبو بكر بلقايد) تلمسان/ الجزائر، amhmmedbaba@gmail.com

تاريخ الاستلام:2021/04/24	تاريخ القبول: 2021/07/01	تاريخ النشر: 2021/07/14

الملخص: ابن الونّان التواتي شاعر مُجيد، صاحب مقدرة فذة، وحسّ إبداعي، وتمكّن من زمام الشعر، والتصرف في أوجه القول فيه.

ينعكس كل ذلك في شمقمقيته التي تُعدّ قطعة فنية شعرية، وديباجة رائعة، ونسج فريد، خرجت عن مألوف الشعر؛ لما ضمّنه الشاعر فيها من كثير من أغراض الشعر، وصياغتها بصياغة شعرية مُحمّلة بكثير من الألفاظ الغريبة القليلة الاستعمال، والرموز التاريخية، والإيحاءات العميقة، التي تستدعي قارئا مثقفا واعيا، متذوقا لجمال الشعر، سابرا لمعانيه ومدلولاته.

فهي ذات أسلوب مشوق، وألفاظ جزلة قوية، يحاكي بها صاحبها فطاحل الشعراء وفحولهم. فغدت أيقونة شعرية ملفتة للنظر، ومستميلة للسامع والمتأدب، قلّ نظيرها في مُستواها ومُحتواها، ونمط بناءها.

فمن هو ابن الونان الشمقمقي؟ وما وجه التميّز في شمقمقيته؟

الكلمات المفتاحية: ابن الونان –الشمقمقية –الصياغة –الأغراض الشعرية – الألفاظ الغريبة – الإيحاء.

Abstract: Ibn al-Wannan al-Twati is a brilliant poet, with exceptional ability, a sense of creativity and a mastery of poetry. This is reflected in his *Shamaqmaqiya*, which is a masterpiece poem unique in its genre, unusual to ordinary poetry because it consists different poetry themes and its formulation loaded with unusual vocabulary which is rarely used, historical symbols and deep allusions which call for an intellectual conscious reader savoring the beauty of poetry exploring its meanings and implications. It has an interesting style and strong vocabulary in which the poet emulates famous poets. It became a striking poetic icon appealing to the listener, unparalleled in its level, content and structure style. Who is Ibnul-Wannan and what is exceptional in his *Shamaqmaqiya*?

Keywords: Ibn al-Wannan; al-*Shamaqmaqiya*; Formulating, Poetic themes; Unusual vocabulary; Allusio

المؤلف المرسل: د. امحمد بابا ، **الإيميل**: amhmmedbaba@gmail.com

1. مقدمة:

الشعر: ديوان العرب ومقيّد احكامها والشاهد على مكارمها، ولا زال العرب يتفاضلون ويتنافسون في قول الشعر وإجادته، ويتفاخرون أيهم أفصح به مقالا، وأقوى منطقا وبيانا، وأقدر على التحكم في صناعته، وسلاسة قريحته به. والتمكن من جميع فنونه وأغراضه. "وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن الشعر هو العملة العربية المتداولة التي تحوز لصاحبها الشهرة الأدبية". (ضيف، 1995، صفحة 574/5)

ولقد قرر النقاد أن "الأدب الذي يحتفظ بكيانه، ويثبت وجوده في كل الظروف، هو الأدب القيم، أما الأعمال الفنية الموقوتة بزمن معين فإن قيمتها تزول بزوال زمنها، وتموت بموت مقتضياتها؛ ومن ثم تكون الأسباب التي أكسبتها شعبية وقتية هي نفسها التي تعمل ضد استمرار حياتها" (إسماعيل، 1958، صفحة 50)

لذلك حرص الشعراء على تضمين قصائدهم ما يكسبها الخلود، ويبقيها متجددة على مر الأعصر. ولكل طريقته في بلوغ هذا الهدف، من بين منقح أو مستغرب للألفاظ أو مفرط في المجاز، أو مبدع لمعاني وتعابير لم يسبق إليها... فمن "شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا ...، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله، زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلّدات، والمنقّحات، والمحكّمات" (الجاحظ، 1423هـ، الصفحات 2-8). لما بلغته من إتقان وجودة، وروعيت فيها محاسن الشعر، واستبعدت مساوئه وما يحط من قيمته.

وتُعدّ الشمقمقية من بين القصائد التي نحا فيها صاحبها طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة، من ناحية التقليد المتبع في الأغراض التي تحتويها القصيدة، من صفات الديار والرّحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، ومن ناحية صياغتها بلغة فخمة تضاهي مستوى المتقدمين. فأكسبها شهرة وإعجابا.

وهي مع هذا مليئة بالألفاظ الغريبة والإيحاءات، والإحالة على التاريخ، فأضحت قافلة ثقافية تمر بقارئها على تلك الأحداث ليستذكرها أو ليعرفها حتى يدرك معناها، فهي سياحة في أيام العرب وتاريخهم. وهذا "من الغموض الفنّي المستحبّ لأن المتلقّي المتمتّع بثقافة شعرية أو فنية يدرك أنها تخاطب عقله وذكاءه وفطنته، وأنها تبعده عن المعاني المباشرة؛ لأن الأداء المباشر يبعد عن الشعر إشعاع الإيحاءات المختلفة. فالفنّ تأمّل، والمتذوّق يجب أن يتحلّى بذائقة قادرة على كشف ما يضيفه الشاعر والمبدع إلى الطبيعة الجمالية التي يرسمها الشاعر. إنها من الصور الخادعة التي تترك للمتلقي أن يذهب إلى تفسيرات مختلفة باختلاف قدرته على الكشف والتذوق وتفكيك عناصر الصورة المتخيّلة" (قاسم، 2003، صفحة 82). وهذا من محاسن الشعر وجودته، فـ "الاعتماد على

الإيحاءات والعلاقات وموسيقى الألفاظ أعظم فيه مما هي عليه في النثر؟ (إسماعيل، 1958، صفحة 71). وهذا ما يجعل المرء يسبح في عالم من الخيال والأحاسيس، التي تكسب الشعر ذوقا خاصا، ومتعة فنية راقية.

والناظر في متن الشمقمقية، يرى كأن ابن الونان يريد أن يقول ما قال الأعشى:

وقَصِيدةٍ تَأتي الملوكَ غَرِيبَةٍ قَدْ قُلْتُها ليُقَالَ: مَنْ ذا قَالَها (إميل، 1996، صفحة 62/6)*

ولتعميق المعرفة بالشاعر(ابن الونان)؛ نسبه ومقامه الشعري، وأرجوزته (الشمقمقية)؛ محتواها وميزاتها. نقترح هذه السطور.

2. التعريف بابن الونان وقصيدته الشمقمقية

1.2 التعريف بـ: ابن الوَنّان

أ) الاسم والنسب

ابن الوَنّان المولود في: "(1187هـ=1773م) أحمد بن محمد بن محمد التواتي الحميري، أبو العباس المعروف بابن الونان: شاعر، من أهل فاس مولده ووفاته بها (الزركلي، 2002، صفحة 243/1)".

وفي إتحاف المطالع: "ووجدت بخط بعضهم هكذا: أحمد بن محمد ونّان بن عبد الله الملوكي التواتي. فعلى هذا يكون ونّان لقب أبيه، وبعد وفاته اشتهر بابن الونّان" (سودة، 1997، صفحة 35/1). ويكنى: " أبو العباس" (كنون، 1990، صفحة 316/1)، كما قال كنون، وكذا في إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، لابن زيدان (زيدان، 2008، صفحة 149/4). وكان آل الناظم وأهل بيته "يدعون بـ (أولاد الونان) لا يعرفون إلا بذلك" (الجكني، 1999، صفحة 117)

فلما اتصل أبوه بـ "السلطان محمد بن عبد الله العلوي، وكان ظريفا (ضيف، 1995، صفحة 432/10)، و"صاحب نوادر وملح، كناه السلطان المذكور أبا الشمقمق (كنون، 1990، صفحة 316/1). تشبيها بالشاعر مروان بن محمد؛ الملقب بأبي الشمقمق* وهو: شاعر هجَّاء، من أهل البصرة. خراساني الأصل، من موالي بني أمية. له أخبار مع شعراء عصره، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس وابن أبي حفصة (الزركلي، 2002، صفحة

* البيت من الكامل، وهو للأعشى في ديوانه ص 77؛ وخزانة الأدب 4/ 259؛ والدرر 1/ 269؛ ولسان العرب 12/ 141 (حكم)، وتاج العروس (حكم)؛ وكتاب العين 3/ 67؛ وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص 189؛ وشرح قطر الندى ص 104؛ وهمع الهوامع 1/ 84. ينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ 1996م: 62/6.

* ينظر عن (أبي الشمقمق الشاعر الأموي) في: البخلاء للجاحظ 64، 114، والحيوان للجاحظ 3/ 317، وعيون الأخبار 2/ 36 و 3/ 247، وطبقات الشعراء لابن المعتزّ 125– 129، والمثلّث لابن السيّد البطليوسي 2/ 232، والعقد الفريد 3/ 35، 36، 40 و 6/ 215، والمستطرف للأبشيهي 1/ 166.

209/7). ولأبي الشمقمق الشاعر، "في الجد والهزل أشياء؛ توفي في حدود الثمانين ومائة، وكان يهجو الشعراء الكبار مثل بشار بن برد وغيره من أهل عصره، وكانوا يصانعونه بالمال وله عليهم رسم في كل سنة (شاكر، 1974، صفحة 129/4).

وهو غير أبي الشمقمق أحد شُيُوخ الطَّبَرَانِي (العسقلاني، 1989، صفحة 266/2)، الذي هو "أَحْمَد بْن الْحُسَيْن بْن عَبْد الملك أَبُو جعفر ويعرف بأبي الشمقمق المؤدب القصرى (الخطيب، 2002، صفحة 156/5)ِ. (الخطيب البغدادي، 2002م، ص156/5)

ثم انتقلت كنية (أبي الشمقمق) التي كانت تقال لأبيه، إلى الشاعر المترجم له "فاتصلت به هذه الكنية" (الزركلي، 2002، صفحة 243/1). وغلبت عليه؛ لما كان له من تفنن في الشعر وإبداع فيه كما كان لأبيه.

وأصل لفظة الشمقمق في اللغة، كما قال ابن فارس: "(شَمَقَ) الشِّينُ وَالْمِيمُ وَالْقَافُ يَقُولُونَ إِنَّهُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَيَذْكُرُونَ فِيهِ الشَّمَقَ، وَهُوَ إِمَّا النَّشَاطُ، وَإِمَّا الْوَلُوعُ بِالشَّيْءِ" (فارس، 1979، صفحة 215/3). وَقَالَ الْفراء كما في التهذيب: "يُقَال للطويل: شمقمق وشَمق" (الأزهري، 2001، صفحة 107/13)

وفي الصحاح: "[شمق] الشمقمق: الطويل. ومروان بن محمد الشاعر يكنى بأبي الشمقمق" (الجوهري، 1987، صفحة 1503/4). ولعله لقب بالشمقمق لطول في خلقته، أو كناية عن طبيعة شعره، من الاستطالة في اللسان تمكنا أو تطاولا، أو تعددا في الأغراض واتساعا في القول.

ب) الأصل والنسبة التاريخية

ينتسب ابن الونان الى قبيلة حمير. و"كان أسلافه من سكان توات في صحراء المغرب مما اختطته زناتة ثم انتقلوا إلى فاس. وكان له، ولأبيه من قبله، اتصال بالمولى محمد ابن عبد الله (المتوفى سنة 1204) (الزركلي، 2002، صفحة 243/1). ويعنى بصحراء المغرب، المغرب العربي الكبير، "وهي الآن من أعمال الجزائر" (الجكني، 1999، صفحة 115) ففي تقسيم العصر الحاضر، يعتبر الناظم تواتي، جزائري الأصل، فاسيّ المولد والمنشأ، فهو يدلي إلى الحِميرية بقومه بني معقل (الجكني، 1999، الصفحات 115-116) من عرب صحراء توات، الإقليم الواقع في المنطقة الغربية للصحراء الجزائرية، والتّابع لولاية أدرار.

ج)المكانة الشعرية لابن الونان

تكاد تجمع كلمة الأدباء والنقاد على شاعرية ابن الونان وسعة اطلاعه وتفنّنه؛ فهو: "الأديب البليغ اللوذعي الأريب، فريد الأوان الشيخ أحمد الونان له باع طويل واطلاع غزير على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها (مخلوف، 2003، صفحة 613/1)

وقال فيه صاحب إتحاف المطالع "الشاعر المتفنن المقتدر، صاحب النظم الشهير بالشمقمقية (سودة، 1997، صفحة 35/1)

فهو "أديب، شاعر (كحالة، 1957، صفحة 155/2)، و"له نظم كثير فيه هجاء وإقذاع (الزركلي، 2002، صفحة 243/1)

وفي شجرة النور الزكية يقول مخلوف معرفا به وبقصيدته الشمقمقية: "أرجوزة الأديب البليغ أبي العباس أحمد الونان المعروفة بالشمشقية" (مخلوف، 2003، صفحة 532/1)

وقال ابن زيدان، هو "أديب الزمان، وفريد العصر والأوان (زيدان، 2008، صفحة 149/4)

وقال شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي، عنه انه: "من نابهي شعراء العصر العلوى، تألق اسمه في عصر السلطان محمد بن عبد الله (1171 – 1204هـ)... ولابن الونان فيه مدائح متعددة (ضيف، 1995، صفحة 432/10)

وقال عبد الله كنون الحسني: "لا مبالغة إذ قلنا: إن هذا هو الشخص الذي لا يكاد يجهله أحد، من مختلف طبقات المثقفين عندنا صغارا وكبارا، فهو قد أحرز شهرة واسعة، بحيث لا تسأل عنه متأدبا ولو ناشئا الا إذا وجدت عنده من أمره خبرا" (كنون ع.، 1979، صفحة 3) وفي موضع آخر، وصفه بأنه: "شاعر فحل، صاحب قريحة سيالة، وخاطر متدفق وفكر نقاد (كنون، 1990، صفحة 316/1)، كثير الشعر "وما نقل الينا من آثار ابن الونان إلا جزء من عشرة أجزاء إن لم نقل أقل من ذلك، لأن ابن الونان كان شاعرا مكثرا سيال الطبع... وكان حسن النظم مكثارا لا يخاف جواد لسانه عثارا" (كنون ع.، 1979، صفحة 8)

فهو أديب شاعر بليغ متفنن، له إحاطة كبيرة بالشعر ومراميه، والتاريخ وايام العرب، وهو القائل في الشمقمقية مفاخرا بعلمه وأدبه، بعدما فاخر بنسبه:

بهِمْ فَخَرْتُ ثمَّ زِدْتُ مفْخَراً = بأَدَبِي الغَضِّ وحُسْنِ مَنْطِقِي

وزانَ عِلْمِي أَدَبِي فلنْ تَرَى = مَنْ شِعْرُهُ كشِعْرِيَ المُنَمَّقِ

فإنْ مَدَحْتُ فمَدِيحِي يُشْتَفَى = بهِ كَمِثْلِ العَسَلِ المُرَوَّقِع

وإنْ هَجَوْتُ فهُجَايَ كالشَّجَا = يَقِفُ فِي الحَلْقِ كمِثْلِ الشَّرَقِ

فإنْ يَكُ الشِّعْرُ عَصَا غَيْرِي فقدْ = أَطَاعَنِي في عَيْهَقٍ وحَنَقِ

وإنْ يكُنْ سيفاً مُحَلًّى فَلَقَدْ = أَبْلَى نِجَادَهُ عِنَاقُ عُنُقِ

وإنْ يكُنْ بُرْداً فقدْ صِرْتُ بهِ = مُعْتَجِرًا دُونَ جميعِ السُّوَقِ

وإنْ يكُنْ حَدِيقَةً فطَالَمَا = نَزَّهْتُ فيها خَاطِرِي وحَدَقِ
وإنْ يكُنْ بَحْراً فقدْ غُصْتُ على = جَوْهَرِهِ وكُنْتُ نِعْمَ المُنْتَقِي
وإنْ يكُنْ تَاجاً فقدْ زادَ سَناً = جَوْهَرُهُ مُذْ حَلَّ فوقَ مَفْرِقِي
وهلْ أنا إلاَّ ابنُ وَنَّانَ الذي = قَرَّبَهُ كَمْ منْ أميرٍ مُرْتَقَ
أَحَقُّ مَنْ حُلِّيَ بِالأُسْتَاذِ وَالشْ = شَيْخِ الفقيهِ العالمِ المُحَقِّقِ
وبالمُحَدِّثِ الشَّهِيرِ والأَدِيـ = ـبِ والمُجِيدِ والبليغِ المُفْلِقِ
وأَعْلَمُ النَّاسِ بدُونِ مَرِيَّةٍ = سِيَّانِ مَنْ في مَغْرِبٍ ومَشْرِقِ
بالشِّعْرِ والتاريخِ والأمثالِ والْ = أَنْسَابِ والآثارِ سَلْ تُصَدِّقِ

ولعل الداعي لهذا الفخر ما كان يلاقيه من الإبعاد وحسد الحساد (كنون ع.، 1979، صفحة 7) وقد يكون هذا مسوغ يستدعيه الحال وتفرضه المنافسة.

2.2التعريف بالشمقمقية وأهميتها

أ) التعريف بالشمقمقية

عرفت أرجوزة ابن الونان بالشمقمقية نسبة لقائلها، وتعد الشمقمقية من أشهر قصائد ابن الونان، وهي التي عرفت به، وأظهرته، فقد "اشتهرت بين أدباء المغرب اشتهاراً لا مزيد عليه، وهي تحتوي على كثير من الفنون الأدبية والأغراض الشعرية، مثل الغزل والنسيب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها، مما يدل على غزارة علمه فضلاً عن تدفق قريحته وقوة ملكته، وهي قافية في نحو ثلاثمائة بيت" (كنون، 1990، صفحة 316/1)

ولعل ابن الونان تعمد إخراجها في هذه الصياغة الشعرية الملفتة فهي "من النظم الفائق والشعر البديع الرائق إبان منشئها ... من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الأدب" (مخلوف، 2003، صفحة 613/1) فهي "مشتملة على كثير من الآداب والحكم ولطائف الإشارة لأيام العرب ووقائعها ومشاهير رجالها (زيدان، 2008، صفحة 398/3)"

وهذا ما ذكره العلامة عبد الله كنون في مقدمته على شرح الشمقمقية، قال رحمه الله: " أما الأرجوزة أو الشمقمقية فهي أعظم آثار ابن الونّان، وديوان أدبه، ونموذج شاعريته، ومثال نظمه، ولكثير من الأدباء إعجاب بها يجاوز حدّ ما تستحق، وهي على رويّ القاف، وعدد أبياتها (275)" (كنون ع.، 1979، صفحة 9)

ان نظرة واحدة واطلاعا عابرا على القصيدة يجذب القارئ اليها، ويستحليها المتذوق للشعر، وما راء كمن سمع، فمعمارها الشعري وقالبها الذي صيغت فيه غريب وفريد في نفس الوقت. وهي مع ذلك رصيد لغوي ثري، وذاكرة تاريخية لا بأس بها. تشبع الفضول وتثري المعلومات وتحافظ على كثير من ألفاظ اللغة الغريبة والمنسية.

ب) سبب نظم القصيدة

قد يكون السبب الرئيس لنظم القصيدة؛ التوسل بها إلى إظهار المقدرة الشعرية للشاعر، وتحكمه في ضروب البيان، وسعة علمه واطلاعه بالتاريخ والأحداث. فهي على ذا لوحة إشهارية، ونبذة تعريفية بمقام القائل.

ينطوي تحت هذا الغرض الوصول الى المكانة العالية التي كان يتولاها أبوه عند السلطان (محمد بن عبد الله العلوي)، والتي حُرمها بفعل المنافسين والحساد، "وكان ابن الونان ناظمها لما انتهى من نظمها قصد بها المترجم الممدوح بها، فتعذر عليه الوصول إليه، فتحين خروجه في بعض الأيام واعترضه في موكبه وصعد نشزًا عاليا من الأرض ونادى بأعلى صوته: يا سيدى سبط النبى ... أبو الشّمقمق أبى

فعرفه رحمه الله وأمر بإحضاره بعد بلوغه إلى منزله، فحضر وأنشده إياها، فوقعت منه أحسن موقع فأجزل صلته، ورفع منزلته" (زيدان، 2008، صفحة 400/3). فكانت القصيدة الحجة على براعته، والمؤهل الذي نال به الحظوة عند السلطان.

والناظر في ثنايا القصيدة يرى أن ما خصص لمدح "السلطان محمد منها (27) بيتا "لا غير، من بين (275) من أبيات القصيدة. ولو كان غرض القصيدة –الأساس– مدح السلطان لكان هو الغالب على صبغة القصيدة. والغالب عند التمعن "طائفة كبيرة من الأمثال والحكم في نحو تسعين بيتا، وهي لب الأرجوزة" (ضيف، 1995، صفحة 432/10)، فأغلب أبياتها حكم وأمثال وذكر لأيام العرب.

وكأن المراد العآم من القصيدة – إضافة إلى ما تقدم – إفادة القارئ بما تحمله من حكم ومواعظ وأمثال، وتجارب الأحداث والزمان، وهذا ما جعل شوقي ضيف يعدها من الشعر التعليمي (ضيف، 1995، صفحة 432/10) ، لغلبة الطابع التعليمي عليها، واستئثاره بجل أبياتها.

ج) عناية العلماء بها

الشمقمقية قصيدة مشهورة معروفة، نالت إعجاب العلماء والطلاب، فقابلوها بالحفظ والشرح والتعليق، وقد شرحت في مجلدات عدة، وأول من شرحها:

– أبو عبد الله محمد الجراري السلاوي المتوفى: (1240/ 1825م) في نيف وتسعين كراسا (زيدان، 2008، صفحة 400/3)، وفي الأعلام أنه واقع في سفرين (الزركلي، 2002، صفحة 69/6)

– ثم الطاهر بن الحاج الهادي بن العناية بن محمد بن أحمد بن الحاج أبو العناية بن عبدو المكناسي المتوفى (1306هـ) (زيدان، 2008، صفحة 400/3)

– وبعده أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلاوي المتوفى سنة (1897/1315م) صاحب الاستقصا، في مجلدين مطبوعين. أسماه: "زهر الأفنان من حديقة ابن الونان" (كحالة، 1957، صفحة 214/1) ولـ: أحمد بن محمد الأمين بن أحمد المختار الجكني، المدرس بالمسجد الحرام اختصار له "قطوف الريحان من زهر الأفنان (شرح حديقة ابن الونان)".

– وللمكيّ بن محمد البطاوري شرح سماه: (اقتطاف زهرات الأفنان من دوحة قافية ابن الونان) في مجلدين (الزركلي، 2002، صفحة 243/1)

– ولأبي محمد العربى بن على المشرفى الراشدى شرح عنونه: "فتح المنان بشرح قصيدة ابن الونان" أو "المواهب السنية، في شرح الشمقمقية" –وكان شروعه في هذا الشرح مستهل شوال سنة 1294 أو في العشر الأواخر من رمضان، وانتهاء استخراجه من مبيضته أواخر جمادى الأولى سنة 1295 كما قال ذلك عن نفسه" (زيدان، 2008، صفحة 10/5)

– ولعبد الله كنون الحسني شرح الشمقمقية، دار الكتاب اللبناني بيروت. دار الكتاب المصري القاهرة، ط5، 1979م

وفي العصر الحاضر انتشرت القصيدة انتشارا كبيرا بفعل الانترنت وأدوات التسجيل، فهي مكتوبة ومسموعة في عدة مواقع، وبأصوات كثير من القارئين والمنشدين، وشرحها علماء عدة.

د) معارضات القصيدة

من مظاهر الاهتمام بالقصيدة معارضتها والنسج على منوالها، و"قد عارض قصيدة ابن الونان جمع من العلماء منهم:

إدريس العلوي الفضيلي (1260 – 1316هـ = 1844 – 1898م) في الدرر البهية في الأنساب الحسنية والحسينية، وقد طبعته حديثا وزارة الأوقاف المغربية في مجلدين، وكذلك الإمام الأديب ابن عمرو الأوسي الرباطي المتوفى أوائل القرن الثالث عشر بقصيدة رائعة جلها بالغريب دبجها بقوله:

مسحت في الإدلاج كل خيفق يراء سبسب يباب سملق

وجبت كل طاسم عفلق متن عبوس سابق المستبق

وقد شرح المعارضة الإمام محمد بن عبد السلام السائح الرباطي، السلفي عقيدة ومنهجا، في كتاب سماه سوق المهر إلى قافية ابن عمرو، وهو مطبوع منذ ستين سنة، ولا يخلو من فوائد كثيرة، ومعارضات قصيدة ابن أبي الشمقمق – ابن الونان، كلها في المدح النبوي، وعابوا عليه أنه في خاتمتها تحدى من يطاوله، وقالوا له أنت كتبت شعرك في مدح الملوك، أما نحن في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

ولمحمد بن التهامي بن عمرو الرباطي. "معارضة الشمقمقية بنظم متين وأسلوب عجيب، شرحها قاضي فاس محمد بن عبد السلام السائح وقد طبع" (سودة، 1997، صفحة 144/1)

هـ) نقد القصيدة

أول ما يقابلنا في نقد شمقمقية ابن الونان، وأشهره، قول خير الدين الزركلي في كتابه المشهور، الأعلام، عنها: "فيها الغث والسمين" (الزركلي، 2002، صفحة 243/1) بإطلاق من غير أن يشير إلى غثها فيما يتمثل.

ثم قال عن مطلع القصيدة: (مَهْلاً على رِسْلِكَ حَادِي الأَيْنُقِ = وَلا تُكَلِّفْهَا بِمَا لمْ تُطِقِ)

"وفي هذا البيت أربع هنات بينات" (الزركلي، 2002، صفحة 244/1). من غير أن يبين ما هاته الهنات البينات.

ولقد اجتهد عصام البشير–العالم الأديب البليغ– في بيان مقصود الزركلي فقال: ولما كنت لا أمتلك غير شرح العلامة عبد الله كنون – وهو مختصر جدا لم يذكر فيه شيئا من هذه الهنات – فقد تأملتُ هذا البيت رجاء الظفر بها، فوجدت ما يلي:

1– قوله (حادي) هو بتسكين الياء، ولا يستقيم الوزن بغير ذلك. والصواب أن تكون الياء مفتوحة، لأنه منادى منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

2– قوله (الأينق) جمع قلة – ففي الألفية:

أفعلة أفعل ثم فعله * ثمتَ أفعال: جموعُ قله

والقلة من الثلاثة إلى العشرة. مع أنه أراد الكثرة، بدليل السياق، وما يأتي من الأبيات.

3– قوله (ولا تكلفها بما) فعدى فعل (كلف) بالباء، مع أنه إنما يتعدى بنفسه،. وفي تاج العروس: (والتَّكلِيفُ: الأَمْرُ بما يَشُقُّ علَيْكَ وقد كَلَّفَه تَكْلِيفاً) قال الله تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) البقرة: الآية: (286)" (الزَّبيدي، 1306هـ، صفحة 332/24)

4– قوله (بما لم تطق) فيه نظر من جهة المعنى، والأصل أن يقول: (ولا تكلفها ما لا تطيق) ، إذ لا يمتنع تكليفها ما لم تطق في الماضي، بشرط أن تتوفر لها الاستطاعة في الحال والمستقبل. فتأمله.

5- قوله (الأينق) مع قوله (بما لم تطقِ) فيه أمران من جهة علم القافية:

أولهما: أن القافية الأولى من المتدارك والثانية من المتراكب.

وثانيهما: اختلاف حركة ما قبل الروي، وهذا من السناد عند من يعمم، فيجعل السناد كل اختلاف فيما قَبْلَ الرّويِّ وما بَعْدَه من حركة أو حرف.

قلت: والذي أراه أنه ليس في هذه الهنات ما يستحق الإنكار الشديد، فكأنّ الزركلي – رحمه الله – بالغ قليلا في النقد (عصام، 1429هـ، صفحة 161) ولعله كذلك.

ومن النقد، ما أورده عبد الله كنون شارح الشمقمقية، من ذلك قوله: "ولكثير من الأدباء إعجاب بها يجاوز حدّ ما تستحق" (كنون ع.، 1979، صفحة 9) وفيه تعريض بأنها أعطيت – عند بعضهم – ما لا تستحق من الثناء. فهي دون ذلك.

أما من حيث القيمة الأدبية للقصيدة، فلنصغ إلى (كنون) شارحها، وهو يقول: "أما قيمتها الأدبية فلا نطيل الكلام عليها بعدما عرفنا مما تقدم الشيء الكثير عن أسلوب ابن الونان وطبقة شعره.

وإنا لا نغلوا فيها غلوّ تلك الطّائفة التي تُجاوز بها حدّ ما تستحقه من الإعجاب، ولا نبخسها حقها وكونها حقيقة في بعض الأبيات تسمو إلى درجة المطبوعين من الشّعراء حتى لا تعدو بها طبقة أبي نواس ومن على طريقته، إنما في بعض الأبيات الأخرى تسفُل حتى لا يبقى فرق بينها وبين الألفيات، وغالب ذلك في هذا القسم الذي يصف فيه البيد والنباتات والأشجار، والحيوانات والأطيار، وفي قسم الحكم والأمثال والوصايا.

أما القسم الأول فلأنه حشر فيه من الألفاظ الغريبة والكلمات الحوشية (ولعلها الوحشية) مما يتعلق بوصف تلك الأمور المشار إليها ما جعله كأنه متن من متون اللغة.

وأما القسم الثاني فإنه أراد أن يسلك في ضرب الأمثال طريقة ابن دريد في مقصورته من الإشارة إلى مواردها، والتزم ذلك التزاما كليا وأغمض فيه كل الإغماض، فعميت أنباؤه على القارئ وصار لا يدرك لها معنى إلا إذا كان بجانبه من يفسرها له، وبذلك خرج هذا القسم عديم الانسجام قليل الفائدة" (كنون ع.، 1979، الصفحات 10-11)

ثم عقب بقوله: "وعلى الجملة فهي أجوزة طريفة جامعة لكثير من فنون الأدب، وأخبار العرب، وهي على عالمية صاحبها أدل منها على شاعريته" (كنون ع.، 1979، صفحة 11) فحسبنا من ذلك ما قال، وهو أدرى، فقد عالجها وغاص في أعماقها.

ويقول شوقي ضيف، بعد أن عرض للقصيدة وقائلها: "وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكتظ بالألفاظ الحوشية، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكدّ القارئ ويحوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان" (ضيف، 1995، صفحة 433/10). يشير إلى الصعوبة وكثرة الغريب فيها، مما جعلها تتصف بالغموض والإغلاق على الفهم.

ومع ذلك فهذا لا يبخس من حقها، وعلو كعبه، ولولا ذلك ما التفت اليها، ولطوتها حجب النسيان، ولكنها اشتهرت وذاعت، وقوبلت بالرضا والاهتمام، وكانت السبب في شهرة قائلها ابن الونان.

3. صور الإبداع في الشمقمقية

1.3 الأغراض الشعرية للقصيدة

لخص شوقي ضيف الأغراض الشعرية للقصيدة بقوله: "للسلطان محمد منها (27) بيتا، وبقيتها موسوعة أدبية، استهلها بالرحلة في مجاهل الصحراء واصفا ركب النوق الذي كان فيه، وظل في أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديها طالبا إليه أن لا يكلفها في السير بما لا تطيق جامعا لها في وصفها كثيرا من أوابد اللغة. ويصف صاحبة له في (25) بيتا، ويورد في وصفها المادي طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فسيشنّ على قومها غارة بفرسان من خير يعرب. ويسترسل في فخره بآبائه وقبيلته اليمنية في نحو خمسة وثلاثين بيتا، ويفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم في نحو تسعين بيتا، وهى لب الأرجوزة، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمي، ويمدح الشعر وشاعرية أبى الشمقمق، وكأنما الأرجوزة كانت منتهية في هذا الجزء منها، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله.

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة في الأرجوزة فحسب، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي يكمل بهم المعاني في أبياته" (ضيف، 1995، صفحة 432/10) وهو بذا ذكر أغراض القصيدة ولخص محتواها ومضمونها.

فهي تنقسم بحسب الأغراض الشعرية إلى ثمانية أقسام:

1- النسيب بذكر رحيل الأحبة، ووصف الإبل التي تحملوا عليها والبيد التي تعسّفوها، ولوم الحادي على جده السير ليل نهار حتى أضرّ بالإبل ضررا بليغا، وتذكيره بمن يحملن على ظهورهن من النساء اللاتي لا طاقة لهن بذلك السير العنيف، وإظهاره شديد العطف على هذه الإبل حتى تبرع بالريادة لها والقيام عليها أحسن قيام.

2- التغزّل بصفات محبوبته، وما هي عليه من فنون المحاسن وضروب المفاتن

3- الحماسة والفخر.

4- مخاطبة الحسود.

5- الحكم والأمثال والوصايا.

6- مدح الشعر.

7- مدح السلطان.

8- مدح الأرجوزة، وتحدّي الشعراء أن يأتوا بمثلها.

والشاعر بهذا التسلسل والانتقال من غرض شعري إلى آخر يضاهي الشعراء الأقدمين، بالبداءة بالنسيب والغزل، ثم الخلوص الى ما يريد معرجا على المفاخرة بنسبه وشاعريته، مضمنا لها كثيرا من الحكم والأمثال والوصايا، التي تعبر عن رجاحة عقله وسعة اطلاعه، مع كونها حكم ينتفع بها استخلصت من تجارب التاريخ والأيام، إلى أن يصل إلى مدح السلطان، ومدح القصيدة التي ألقيت بين يديه.

إنه ترسل منطقي وسلس، أراد به تقديم نفسه والإفصاح عن شاعريته ومقدرته وإحاطته، والوصول إلى قلب السلطان، وإعجاب السامعين، فكان له ذلك.

2.3ميزات القصيدة

امتازت الشمقمقية بعدة ميزات اكسبتها الاهتمام والذيوع، منها:

- الطول: فالشمقمقية أرجوزة طويلة واقعة في: (275) بيتا. تضاهي المعلقات.

- تعدد الأغراض الشعرية: من فخر ومدح وهجاء، ووصف وتمثيل ونقد ووعظ...

- نمط الشعر التقليدي: اتبع فيها "نمط الشعراء الفحول؛ استهلها بالرحلة في مجاهل الصحراء واصفا ركب النوق الذي كان فيه، وظل في أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديها طالبا إليه أن لا يكلفها في السير بما لا تطيق جامعا لها في وصفها كثيرا من أوابد اللغة..." (ضيف، 1995، صفحة 432/10)

- الوصف: الدقيق والصورة المستوحاة من البيئة الصحراوية وتقاليد العرب.

- الألفاظ الغريبة والوحشية: التي تسيطر على أغلب أبيات القصيدة. كما قال شوقي ضيف عن المتنبي في (تصنُّعُه للغريبِ من اللُّغة) "فإنك تراه يخرجه إخراجًا لغويًّا؛ إذ يحشد فيها الألفاظ الغريبة حشدًا، وكأنه ليس له وجهة إلا أن يعبر تعبيرًا لغويًّا غريبًا، حتى ينال إعجاب اللُّغويين من أصحاب الغريب (ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، 1960)

- الأمثال والحكم: وفيها طائفة كبيرة من الأمثال والحكم في نحو تسعين بيتا، وهي لب الأرجوزة، وأكبر غرض شعري فيها. وكأنها المراد الأساس من إنشائها.

– موسوعة أدبية: جمعت كثيرا من الأمثال والحكم والتعابير الفنية والألفاظ الغريبة.

– موسوعة تاريخية: ضمت كثيرا من شخصيات العرب وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي.

– موسوعة لفظية: حوت كثيرا من الألفاظ الغريبة والمهجورة الاستعمال، ويعتبر هذا إعادة إحياء لها وتذكير وتعريف بها.

– كثرة الايحاءات والإحالة على التاريخ: ربط فيها الأمثال والحكم بما يعضده من أحداث تاريخية ووقائع. ولعل خير معين على التعرف على تلك الأحداث والوقائع كتاب: "قطوف الريحان من زهر الأفنان (شرح حديقة ابن الونان)" لـ: أحمد بن محمد الأمين بن أحمد المختار الجكني. فقد رتبه على ذكر الأيام والوقائع، يغني عن الرجوع إلى كثير من مصادر التاريخ.

وبهذه الميزات لا تكاد تجد قصيدة تضاهيها في جمع كل ما تقدم وأزيد، مما لم نذكره، فهي حقا فريدة من نوعها.

4. خاتمة:

ابن الونان الشاعر العربي المغربي التواتي، ممن تتزين بهم سماء الأدب، وتتعطر بهم مجالسه، وتفخر بهم أقطاره. علم من أعلام المنطقة، ممن ينبغي التعريف به وبآثاره.

أما الشمقمقية فهي عنوان شاعرية (ابن الونان) والمُعَرّفة به، وبمقامه الشعري، وهي أشهر ما وصلنا عنه. فقد أبان فيها الشاعر عن علوّ كعبه، وإدراجه في صف المتمكنين من قول الشعر والمتفننين فيه.

وهي قصيدة طويلة ذات طابع موسوعي؛ عدد فيها من الأغراض الشعرية، والإحالات والمرجعيات التاريخية. ما يخولها أن تكون مرجعا في أيام العرب وأمثالهم.

ويمكن أن تتخذ القصيدة مصدراً يستعان به في الوعظ والأدب والأخلاق لما حوته من كثير من المواعظ والأمثال والحكم، بل كان طابع القصيدة الغالب من الأغراض. كما يمكن أن تدرس مرجعا أدبيا معينا على حفظ الغريب وفهمه، ومقاصد العرب وإيحاءاتهم في الكلام؛ لاكتساء القصيدة بكثير من الألفاظ الغريبة وغير المستعملة، والإيحاءات والمعاني الدقيقة.

تعتبر الشمقمقية معطى ادبيا يمتاز عن غيره بجرسه الموسيقي، وتعدد أغراضه، وصياغته بديباجة مترآصة من الغريب، والإيحاءات العميقة، والإحالة على تاريخ العربي، وطرفهم وحكمهم.

5. قائمة المراجع:

ابن زيدان. (2008). *إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*. القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية.

ابن سودة. (1997). *إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني. (1989). *نزهة الألباب في الألقاب*. الرياض: مكتبة الرشد.

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب. (2002). *تاريخ بغداد*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. (1987). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*. بيروت: دار العلم للملايين.

أحمد بن فارس. (1979). معجم *مقاييس اللغة*. بيروت: دار الفكر.

أحمد بن محمد الأمين بن أحمد المختار الجكني. (1999). *قطوف الريحان من زهر الأفنان (شرح حديقة ابن الونان)*. مكة المكرمة: مكتبة الملك فهد.

أحمد قاسم. (2003). *علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»*. لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب.

البشير عصام. (7 رمضان , 1429هـ). *أرشيف ملتقى أهل الحديث*.

الجاحظ. (1423هـ). *البيان والتبيين*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

إميل. (1996). *المعجم المفصل في شواهد العربية*. بيروت: دار الكتب العلمية.

خير الدين الزركلي. (2002). *الأعلام*. بيروت: دار العلم للملايين.

شوقي ضيف. (1960). *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*. مصر: دار المعارف.

شوقي ضيف. (1995). *تاريخ الأدب العربي*. مصر: دار المعارف.

عبد الله كنون. (1979). *شرح الشمقمقية*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

عز الدين إسماعيل. (1958). *الأدب وفنونه (دراسة ونقد)*. القاهرة: دار الفكر العربي.

عمر رضا كحالة. (1957). معجم *المؤلفين*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

كنون. (1990). *النبوغ المغربي في الأدب العربي*. لبنان: الشركة العالمية للكتاب.

محمد بن أحمد بن الأزهري. (2001). *تهذيب اللغة*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

محمد بن شاكر. (1974). *فوات الوفيات*. بيروت: دار صادر.

محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف. (2003). *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية*. لبنان: دار الكتب العلمية.

مرتضى الزَّبيدي. (1306هـ). *تاج العروس من جواهر القاموس*. مصر: المطبعة الخيرية .